٩. السلوك المسئول

كيف نتصور الطبيعة؟ الإجابة عن هذا السؤال هى التى تحدد مانعتبره موقفاً مسئولاً بإزاء العالم الطبيعى. فإذا تصورنا الطبيعة بوصفها سحرية أو ساحرة فاتنة، كل شجرة تقطنها حورية وكل ينبوع يسكنه جنىّ فإن الموقف بإزائها يبحث عن استعطافها واسترضائها. وإذا تصورناها كخشبة لمسرح الدراما الإنسانية فإن الموقف منها لامبالٍ يعنيه تحقيق أهداف موضعية جزئية. وإذا اعتبرنا الطبيعة هى الرحم الذى تخلق عنه ميلادنا التطورى سنشعر إزاءها بأواصر القربى الحميمة...

أما وقد اعتبرنا الطبيعة خلقاً إلهياً فإن الموقف المسئول منها هو احترامها وصونها والحفاظ عليها بوصفها هبة من لدن الله.

وفى هذا الفصل المكرس للسلوك الأخلاقى المسئول، يحاول بولكين هورن أن يلقى أسساً لأصول الموقف المسئول بإزاء الطبيعة. وسوف نلاحظ كيف ينحو نحو جعلها أسساً دينية.

الاستغلال:

بدايةً، نلاحظ أن المسيحية مدانة بتأجيج نيران التعامل الاستغلالى المدمر مع الطبيعة. ولئن كانت الأنظمة الإلحادية فى شرق أوروبا وفى الاتحاد السوفيتى السابق قد ساهمت بنصيب وافر فى تلوث مريع وتدمير للبيئة، إلا أنه لابد من الاعتراف بأن المسيحية رآها البعض سنداً له فى هذا الموقف الاستغلالى، لأن تياراً قوياً فيها أقر بأن الطبيعة بعجماواتها من حيوان وطير مخلوقة فقط من أجل الإنسان وراحته وتلبية احتياجاته، وهو تيار قوّاه ونمّاه ديكارت حين أقر بأن الحيوانات محض آلات حية من أجل مصالح الإنسان.

وفى الرد على هذا يتمسك بولكين هورن بأن المسيحية وسط ذهبى، وقفت فى مواجهة النظر إلى العالم المادى بوصفه شراً مستطيراً محضاً كما ذهبت الديانة المانوية، ولم تعتبر البشر محض كائنات روحانية تبحث عن الخلاص من أسر الجسد كما فعلت الغنوصية. إنها ديانة التجسيد، حيث تجسدت كلمة الرب وسكنت لحم المسيح ودمه، مما يعنى أنها ديانة تحمل عميق الاحترام للمادة وللعالم الفيزيقى.

العناية بالخلق:

لذا، لانندهش لأن ثمة تقليداً مسيحياً آخر يعبّر عن قيمة العالم الطبيعى ويدعو لاحترامه والرفق بكائناته تحمله أبيات فى «نشيد الأنشاد» وآيات فى «سفر التكوين». إنه تيار يرى البشر ممثلين فى مسرحية الخلق الكبرى، نشأوا عن تراب الطبيعة وإليه يعودون؛ ممايعنى موقفاً من الطبيعة يجعل الإنسان متشاركاً معها ملزماً بالعناية بها

وبقاطنيها من حيوان وطير، أليست خلقاً لله؟!

والآن نسلم جميعاً بالحاجة إلى كبح جماحنا لنتعامل مع الطبيعة برفق وعناية؛ حتى أن مارجريت ثاتشر وهى النصير المتحمس للملكية الخاصة والمبادرات الفردية كانت تذكرنا دائماً بأنه ليس فى حوزتنا عقد ملكية للعالم الطبيعى بل فقط عقد إيجار أو حق انتفاع متجدد. وهذا مايجعل الدول الآن تسنّ قوانين المحافظة على البيئة والمحميات الطبيعية، أو مثلاً قوانين تمنع الصيد فى مواسم التزاوج والتناسل أو إطلاق النار على طير يرقد على بيضه..

كل هذه قيم تتأتى تلقائياً فى الموقف من الطبيعة بوصفها خلقاً لله.

حقوق الحيوان:

على أن الطبيعة واقع مركب ومعقد، وتفهمنا لعلاقتنا بها يجب أن يكون هو الآخر مركباً ومتعدد الأبعاد. إذ يتربص بنا أعداء من الطبيعة يجب مكافحتهم وأحياناً قهرهم تماماً. لا أحد يتصور ـ مثلاً ـ أن مكافحة فيروس الجدرى والعمل على استئصال شأفته من خلال برنامج عالمى للتطعيم يمكن أن يكون خطأ.

فلا ينبغى أن ننساق فى الرفق بالطبيعة إلى غير حدود، ونتصور أن حقوق الحيوان مكافئة لحقوق الإنسان فى الحياة، كما يذهب بعض المتطرفين الذين لانملك إلا أن نسألهم وماذا عن حقوق الديدان والنمال؟! كيف نزعم أن حقوق الحيوان مكافئة لحقوق الإنسان، وليس عليه ما على الإنسان من واجبات والتزامات، ومهما وقف علم النفس على قدرات وإمكانيات وانفعالات مبدئية للحيوان، سوف يظل الإنسان دائماً كائناً فريداً ومتميزاً بعوامل عديدة على رأسها الوعى والالتزام الخلقى.

أجل! ينبغى الرفق بالحيوان، لكن لايعنى هذا البتة أن وجوده مكافئ لوجود الكائن الأخلاقى / الإنسان.

نمط الحياة المتساندة:

فى السنوات الأخيرة يرعى مجلس الكنائس العالمى برنامجاً للمناقشات المطولة وأحياناً العمل الإيجابى تحت عنوان «العدالة والسلام وتكامل الخلق»، الذى يضم حقاً أبعاد الإشكالية المعضلة. العدالة تعنى أن يتشارك الناس جميعاً بكل أنحاء العالم فى موارده، والسلام يرتكز على هذه العدالة فى التوزيع. لكن استغلال الموارد بالنسبة للشعوب الفقيرة فى الغابات الاستوائية يعنى حرق أخشاب الأشجار الثمينة كوقود أو إهدار الغابات بتحويلها إلى أراضٍ زراعية، وهذا يعنى تبديد موارد طبيعية وضرورية للتوازن البيئى على كوكب الأرض. الحق الصراح أن سد احتياجاتهم على المدى الطويل يتطلب أنظمة اقتصادية عالمية أكثر عدلاً تضم الشمال والجنوب، الدول الغنية والفقيرة، بيد أن النوازع والعقبات السياسية تحول دون هذا. إن العدالة والتوازن البيئى

يتطلب تضحية من الدول الغنية فى أوروبا وأمريكا الشمالية، ولايكفى أن نتحدث - دون فعل - عن حقوق الآخرين فى الحياة. ولعل أحزاب «الخضر» التى تجعل الحفاظ على البيئة العالمية هدفها الأول تستحق التحية.

تكامل الخلق :

ليس تكامل الحق مجرد شعار. لكن كيف يصبح ممكناً فى العالم التطورى؟ لاينبغى النظر إلى الطبيعة فقط من خلال المنظور الإنسانى، بل يجب أن ننظر إليها أيضاً فى حد ذاتها، فى غيريتها، كآخر.

إن الخسائر الوراثية والحيوية لاتقلقنا إلا حين تهدد بعض أشكال الحياة بالانقراض. بيد أن أزمنة الانقراض تعنى أيضاً تخلق أنواع جديدة من الحياة كواقعة معروفة فى التاريخ التطورى، فلولا انقراض الديناصورات لما قدرت الغلبة للثدييات. وطبعاً الأزمنة التى تشهد انقراضاً وتخلقاً طويلة المدى، أوسع كثيراً من مجال الذاكرة الإنسانية. أما فى مجالنا وواقعنا فإننا نشهد انقراض أنواع من الحياة بمعدل يزيد عشرة آلاف ضعف عن المعدل الطبيعى الذى كان للانقراض والفقدان الطبيعى لأشكال من الحياة. فلايمكن الآن أن نكتفى بالنضال من أجل الحفاظ على الواقع الطبيعى كما هو.

ينبغى على كل تصرف إنسانى أن يحافظ على الطريقة الطبيعية التى يعيش بها الحيوان حياته، لا أن يمثل عائقاً أو إحباطاً أو تبديلاً جوهرياً لها كما تفعل المزارع وأساليب التصنيع الحديثة، وأحياناً بصورة غير مقبولة إطلاقاً. ليس من الضرورى أن يدفع الحيوان ثمناً باهظاً لكى يتم تداول الطعام فى الأسواق بأسعار رخيصة.

ويشير بولكين هورن إلى أن علاقاتنا بالحيوانات ليس جميعها من النمط نفسه. فنحن نكن إعزازاً خاصاً للحيوانات المنزلية. وهناك أشكال طبيعية متعارف عليها للصيد. إما من أجل الفراء، أو من أجل استبعاد الحيوانات المفترسة أو على سبيل الهواية والشغف بالمطاردة. وبالطبع يجب تجنب أى معاناة للحيوانات لاضرورة لها، وهذه مسألة، المتمرسون أدرى بأصولها من أبناء المدينة الذين يقطعون الملل برحلة صيد فى البرارى.

ويقول بولكين إنه متأثر فى هذا بأخلاقيات جده لأمه الذى كان فارساً ومروضاً محترفاً للخيول، ذا قدرة عميقة على تفهم الحيوان والإحساس به، سواء الجواد الذى يمتطيه أو الذئب الذى يصطاده. ويعيد التنبيه على أننا لاينبغى أن نكون عاطفيين أكثر مما يجب أو بصورة مطلقة فى تعاملنا مع الطبيعة، فبعض أنواع الحيوان تقتضى تشدداً أو معاملة من نوع آخر لأغراض إنسانية سامية أو حيوية.

فمن المقبول تماماً استخدام الحيوانات للتجارب والأبحاث الطبية، على شرط إتباع

قواعد صارمة تحول دون تكبيدها آلاماً ومعاناة لاداع لها. وفى كل حال يجب أن يكون البحث مستحقاً لهذا فاستخدام حيوان لاختبار مضاد حيوى جديد شيء، واستخدامه للكشف الروتينى على فعاليات مستحضر تجميل شيء آخر.

إننا نحدد علاقتنا بالحيوان على أساس النوع وليس الفرد. ربما باستثناء الحيوانات المنزلية.

البيئة :

والآن ينبغى أن نرفع أعيننا لنستشرق منظوراً أرحب وهو علاقة الإنسان بالبيئة ككل متكامل. فمنذ أن بدأت الحضارة وضغوط البشر مستمرة وتأثيرهم متوالية على الوسط الطبيعى المحيط بهم. فقد شكلت أيدى البشر المشهد الطبيعى بأسره فى بريطانيا ـ مثلاً، ولم يعد بها مكان واحد لم تمسه يد الإنسان، ربما لاتزال توجد أمثال هذه الأماكن البكر فى مناطق أخرى من العالم، ولكن ليس فى بريطانيا. لا يعنى هذا أننا لايمكن أن نواجه فيها الطبيعة، لكنها طبيعة «الحديقة أو البستان».

إن انتهاك الإنسان للطبيعة البكر بل وتخريبها يحدث على نطاق واسع منذ قديم الزمان، هكذا فعل الرومان فى شمال أفريقيا. والذى استجد فى الأوقات الراهنة أن هذا يحدث على مجال يترك تأثيره على بيئة كوكب الأرض ككل، ليس على أماكن محددة فيها، من قبيل رفع درجة حرارة كوكب الأرض، أو تدمير طبقة الأوزون وكل ثقب فيها يعرّض بشرة الإنسان لامتصاص أشعة ضارة تسبب أمراضاً خطيرة. أمثال هذه التغيرات الكوكبية الواسعة النطاق، قد لانلاحظها أو نلاحظ تأثيراتها، وإذا لوحظت فإنها تتطلب عملاً شاقاً يستغرق مدة طويلة من الزمن، لكى نواجهها ونواجه آثارها الضارة.

التزايد السكانى :

يؤكد بولكين هورن أن مشكلة التزايد السكانى أعظم المشاكل، وعنها تتمخض ـ بشكل أو بآخر ـ كل المشاكل البيئية الأخرى. لقد أصبحنا نتزاحم ونتصارع من أجل موطئ قدم فى الأرض، ولم يعد ثمة مكان بكر نرسل إليه فائض السكان.

ثمة نفور من الاعتراف بهذا فى معظم المؤتمرات الدولية سواء سياسية أو أخلاقية أو دينية. ويتأزم الأمر حين نلاحظ أن الانفجار السكانى يحدث فى البلدان النامية وليس فى العالم المتقدم. إن الفقراء يعتبرون الأطفال أهم موارد الرزق الذى هو أصلاً شحيح وموارده محدودة، وارتفاع نسبة وفيات الأطفال يدفعهم لإنجاب الكثيرين منهم لتبقى لهم ذرية فى أى حال. إن تنظيم النسل وتحديده يواجه صعوبات فى المجتمعات المتخلفة ويتطلب مسبقاً مستوى معيشة مرتفعاً.

وثمة أيضاً اعتبارات أخلاقية، الناس يعتبرون الإنجاب مسألة خصوصية حميمة

وتحديدها والتدخل فيها قيد غير مقبول على الحرية الشخصية جداً. إن التوتر بين حقوق الأفراد وبين شروط الخير العام للمجتمع يجعل هذه المسألة ضاغطة إلى أبعد الحدود.

أما من الناحية الدينية، فتنشأ المشكلة عن اختلاف التأويلات اللاهوتية لطبيعة العلاقة الجنسية وأهدافها. وحين أعلن البابا أن وسائل منع الحمل غير مرغوبة سبب هذا مشاكل كثيرة، ليس فقط فى العالم الكاثوليكى بل فى مجمل العالم المسيحى، ورأى البعض إن القساوسة الكاثوليك لايلمسون خطورة هذه المشكلة.

وأياً كان الأمر، لا مندوحة البتة عن كبح جماح الانفجار السكانى، سواء بتخطيطات قد تكون أحياناً مؤلمة، أو عن طريق موقف إنسانى مُتساند ومتشارك مع الطبيعة.

جايا : Gaia

البعض يرى أنه لاداعى للقلق على أساس فرض جايا، وهو فرض طرحه جيمس لافلوك J. Lovelock، يشير إلى أنظمة شبه مستقرة تعمل دائماً فى نطاق الأرض لتصون درجة مدهشة من التوازن فى الظروف الضرورية للحياة على الرغم من كل التقلبات، وعلى مدى مئات الملايين من السنين، فتحفظ مثلاً نسبة الأكسجين فى الغلاف الجوى أو متوسط الضغط الجوى أو درجة ملوحة ماء البحر... الخ. بعض هذه الأنظمة لانفهمها تماماً لكنها جميعاً عاملة وفاعلة. ويقيم لافلوك مماثلة سطحية مبتذلة بين تكامل الأنظمة فى الأرض وتكامل الأنظمة فى الكائن الحى.

والواقع أن الأرض لا هى آلة ميكانيكية ولا هى تبدو ككائن حى، إنها تبدو ككيان قادر على تنظيم ذاته وليس لدينا اسم مناسب له. ولكن ليس من الحكمة البتة أن نعتمد على الماضى كمرشد للحاضر، فإذا لاقت المشاكل البيئية فى الماضى حلولاً طبيعية، فلاشىء يضمن أن المشاكل البيئية فى المستقبل سوف تلاقى حلولاً طبيعية، خصوصاً وأن عمر الوجود الإنسانى قصير جداً ولايشكل نسبة يعتد بها. وفرض جايا مفرط التفاؤل، وقد يدمره السلوك الإنسانى بإزاء الطبيعة بعد أن تعاظم شأنه. لاينبغى الثقة الزائدة فى حلول طبيعية أو تلقائية. وأيضاً لاينبغى التشاؤم المفرط، فنحن نعرف الآن أنظمة محددة عاملة على مثل هذا التوازن البيئى، مثلاً الدفء الذى يطرأ على الكرة الأرضية يرفع درجة حرارة البحار فيزيد من عملية التبخر وتتشكل سحب أكثر كثافة، تمتص جزءاً من الحرارة الآتية من الشمس، وبالتالى ينتج توازن عام فى درجة الحرارة.

وأمثال هذه المعارف تجعلنا نستطيع التنبؤ بأحوال الأرض، ولكن أيضاً لاينبغى

الاعتماد التام على هذه التنبؤات. إن التنبؤات بالعمر الافتراضى للمخزون من الوقود الحفرى ـ مثلاً ـ كثيراً ماكانت خاطئة. فى عام ١٩٠٨ جاء أحد مستشارى تيودور روزفلت وأخبره أن الولايات المتحدة الأمريكية ستستهلك مخزونها من فحم الانتراسيت خلال ثلاثين عاماً ومن أشجار الغابات خلال خمسين عاماً. ولكن الاكتشافات الجيولوجية من ناحية، وتغير أنماط استهلاك الوقود والطاقة من الناحية الأخرى أطاحت بهذا التنبؤ.

والخلاصة أن التفاؤل المفرط والتشاؤم المفرط كليهما خطأ، على أن نضع فى الاعتبار صعوبة التنبؤ الدقيق بما سيكون عليه الوضع فى المستقبل.

مناظرة أخلاقية:

معظم التحذيرات البيئية الآن صاخبة أكثر مما ينبغى. والدعاوى بشأن بعض التطورات الحديثة، كالقوة النووية أو الهندسية الوراثية أو الأساليب المستحدثة للزراعة، إما تزعم أنها الأفضل طراً، أو الأسوأ على الإطلاق. وهذه الاستقطابات المتطرفة لاتفيد كثيراً إذا رُمنا مهمة محددة هى «العناية بالخلق»، فهذه المشاكل لاتقبل الطرح التبسيطى الأحادى الجانب، وثمة دائماً قدر من المكسب وقدر من الخسارة فى كل وضع. ومجتمعاتنا لاتشجع المناظرات العقلانية للتقدير الدقيق، وسائل الإعلام دائماً منحازة. إذا كانت القوة النووية هدفاً تسعى إليه الدولة ستتكرس الإذاعات المسموعة والمرئية لحل مشكلة النفايات النووية، ولن تنحاز لأحزاب «الخضر» أو تنظم حواراً متكافئاً بين الجانبين. وكما أشار فيلسوف الأخلاق ألسدير ماكينتير A. MacIntyr، فإن مايشهده المجتمع المعاصر من غياب الاتفاق على أسس أخلاقية متعارف عليها لاتخاذ القرارات جعل المناظرات الأخلاقية ترتد إلى تقريرات عالية النبرة للآراء الفردية. ويعلم بولكين هورن أن كثيرين فى العالم الغربى لن يتفقوا معه فى النظر إلى الكرة الأرضية بوصفها خلقاً لله واتخاذ هذا أساساً لمعالجة مشكلة البيئة، ولكنه يعتقد أن المسيحية يجب أن تتآزر مع الأديان الأخرى الكبرى للخروج بأسس دينية مشتركة كأساس أخلاقى للعناية بعالمنا، لعلها تتمثل فى احترام الإنسانية جمعاء للحياة وللعالم الذى نشأنا عنه. إننا فى حاجة للتشارك فى مفهوم متفق عليه للخير العام، يكون رحيباً بما يكفى لاستيعاب العالم الطبيعى ومستقبل الأجيال القادمة.

مساهمة العلم:

للعلم والعلماء دور لا مندوحة عنه فى هذا، لاسيما أن العلم بتقاناته (تكنولوجياته) هو المُدان الأول فى الجرائم البيئية. والحق أن العلم يهبنا قوة قد نستخدمها للخير أو للشر. فمن الصواب أن نكافح استخدام الهندسة الوراثية من أجل اليوجينيا ـ أى من أجل تحديد الخصائص الوراثية للبشر وفقاً لتصور مسبق، ومن الصواب أيضاً أن نشجعها من أجل القضاء على الأمراض الوراثية الخطيرة.

وهذا لايعنى أن العلماء لاشأن لهم بالموضوع، والمجتمع هو الذى يحدد لهم مايجب وما لايجب. العلم ليس متحرراً من القيمة بالمعنى الذى يجعله محايداً بشأن استغلال مكتشفاته. العلماء والخبراء لهم حدوسهم الأخلاقية بوصفهم بشراً، فضلاً عن أنهم الأدرى بالموضوع. لكنهم من الناحية الأخرى ينساقون وراء استئناف مسار الأبحاث وتطبيقاتها، وكما أشار الفيزيائى البارز أوبنهايم «حلاوة الإنجاز العلمى» هى التى دفعت إلى مواصلة الجهد ليصلوا فى النهاية إلى تفجير القنبلة الذرية ـ التى لاينكر بولكين هورن أنها مشروع له مايبرره ـ بصرف النظر عن خطورتها. صحيح أن العالم الشرير ذا الأهداف الخبيثة أو العالم الذى يندفع وراء إنجاز البحث مهما كان الثمن على شاكلة دكتور جايكل (ومستر هايد) هى أمثلة بالغة الندرة؛ إلا أنه يجب فى النهاية معالجة الأمر فى سياق أرحب يضم العلماء والخبراء والمعنيين به فى المجتمع بأسره. خصوصاً وأنه ينبغى تحديد الملائم وغير الملائم من التقانة (التكنولوجيا)، قبل الشروع فى البحث المؤدى إليها وليس بعد إنجازها.

لكى نصل إلى القرارات الحكيمة، نحن فى حاجة إلى التواصل الدائم بين العلماء وبين المجتمع الأرحب. ويجب أن يكون العلماء شديدى العناية بتقدير المكاسب والخسائر وراء كل خطوة ينجزونها. ولاتغيب العوامل الاقتصادية عن مثل هذه القرارات.

هناك دائماً إمكانية لأن يهبنا التقدم العلمى حلولاً جديدة وناجحة لمشاكل قديمة وصعبة. ومشكلة الطاقة من أخطر المشاكل الملحة التى تساهم بنصيب الأسد فى تدمير البيئة وتلويثها. إن البشر فى احتياج متزايد لمصادر أكثر للطاقة، وسوف يتضاعف هذا الاحتياج مع التقدم الذى ترنو إليه الدول النامية، وعلى العلم أن يجّد الخطى فى أبحاث الاندماج النووى؛ لأنه حل مثالى يهبنا طاقة وفيرة لاينجم عنها تلويث للبيئة.

وأخيراً، فإن صعوبة الوصول إلى أحكام صائبة فى هذا الأمر توازيها صعوبة تنفيذ هذه الأحكام. وهاهنا دور السياسات.

خاتمة المطاف:

إنه من العسير الوصول إلى محصلة حاسمة لمثل هذا الفصل الذى يعالج موقفاً شديد التعقيد والتداخل فى صميمه. إن عناية الإنسان بالطبيعة المخلوقة وتفاعله المسئول معها هو هدف حيوى للغاية بيد أنه عسير البلوغ، واستراتيجيات تحقيقه محاقة بالبلبال. المعرفة أساس لامحيص عنه لكل تفكير بيئى، ويتقدم العلم كمساهم فعال؛ وإلا فنحن نتلمس طريقاً فى الظلام. التغير حتمى، وينبغى أن نحاول التنبؤ به وتقديره، وترشيده قدر استطاعتنا. والقرارات فى هذا الأمر تعتمد على القيمة والواقع

على السواء. إن انفصال الإنسان عن الطبيعة ـ فيما يرى بولكين هورن ـ مسألة خطيرة تجعله قاسياً ومدمراً لها ولذاته. والبشر فى حاجة دوماً لإظهار ما أسماه ألبرت شفيتسر A. Schweitzer «تبجيل الحياة». ودوناً عن البشر أجمعين، يتقدم العلماء بحس عميق من الدهشة المنبثقة عن مواجهتهم لنظام العالم الفيزيقى وبمعرفة أعمق بهذا العالم، ليلعبوا دوراً بارزاً فى دفع المجتمع؛ لكى يسلك بإزاء الطبيعة سلوكاً مسئولاً للحفاظ على مقدراتها الراهنة ولصون حقوق الأجيال القادمة فيها.

obeikandl.com